



عبد الله العلووي

# الخيام على عتبة الحق والاتهام

لقد زخر التاريخ العربي والإسلامي بشخصيات أثرت بشكل كبير في مسيرة العلوم في الشرق والغرب، وأصبح لها دور فاعل وباع طويل في تطور العلم في كل المجالات الإنسانية والطبيعية والثقافية، وقد لاقى اهتماماً كبيراً من كل أصقاع الدنيا في العصور المتقدمة، ومن هذه الشخصيات هو العالم والفيلسوف والرياضي والفلكي والشاعر الفارسي عمر الخيام، فقد ألقت الكتب عنه، ودُرست مؤلفاته وفلسفاته، وصيغت المقالات حول شخصيته، ومن الذين اهتموا بهذه الشخصية الجوهريّة هو يوسف بكّار في مقالة له عنوانها: «آثار عمر الخيام العربية وأهميتها».

تدعو للخلاعة والمجون، ونشروا هذه الأفكار في الدول التي استعمرها.

ويبدو من الجدل السابق أن هناك فهماً خاطئاً لرباعيات الخيام من قبل المتعصبين - ولست هنا في مقام المدافع ولا المناصر - فكما يقال ناقل الكفر ليس بكافر، ولو تتبعنا الأدب العربي لوجدنا أن هناك من الشعراء من تغنوا بالخمر أو ذكروا مجالس الغناء، أو ذكروا أشياء لم يفعلوها، أو لم يروها، ومنها بشار بن برد، حيث يصف الحرب وكأنه يراها رغم أنه أعمى، فيقول:

كأن ميثار النقع فوق رؤوسنا...

وأسيافنا، ليل تهاوى كواكبه

ومن التراث العماني الشعري، الشاعر راشد الحبسي في مدحه لقبيد الأرض رغم أنه أعمى ولكنه يصف خيوله فيقول:

تسعون ألف حصان من كرائمها...

غير الرماك فما في قولنا وهم

ثم إن بعض الباحثين يقول بأن هناك أبياتاً كثيرة في رباعيات الخيام مغلوطة، ومنسوبة للخيام زوراً وبهتاناً، كيف لا وهو القائل:

أصوم عن الفحشاء جهراً وخفية...

عفاً وإفطاري بتقديس فاطري

وكم عصبة ضلت عن الحق فاهتدت...

بطرق الهدى من فيضي المتقاطر

إن الخيام من الشخصيات الشرقية التي هُضمّ حقها بسبب التعصب الديني الأحمق، فقد حُورب حرباً شنيعة، وشُوّهت سمعته وأخلاقه، وانتماؤه لدينه، مثله مثل بقية الفلاسفة المسلمين أمثال ابن رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم، وقد تلقفته أوروبا بذراعيها، وترجمت أعماله للغات العالم، وقد حُصت الرباعيات بالترجمة أكثر من مؤلفاته الأخرى، فقد تمت ترجمتها لأكثر من ثلاثين لغة في العالم أولها ترجمة الشاعر الإنجليزي إدوارد فيتسجيرالد، فقد ترجمها بترجمة ثرية حرفية، وترجمة شعرية، كذا لا ننسى دور توماس هايد الذي ترجم رباعية واحدة إلى اللاتينية، ومن اهتمامهم بالخيام كونوا نادياً اسمه باسمه في لندن، والذي بدوره جذب القامات الأدبية والفكرية، وبهذا النادي ذاع صيت الخيام في الأوساط الأدبية الأمريكية والألمانية، كما أثر على أصحاب مدرسة «ما فوق العقل» أمثال لونغ فيلو وأمير سون وديفيد ثوروو.

ختاماً: يجب ألا ننقل من قيمة العلماء والمفكرين والفلاسفة، فهم ماء الحياة، وبهم تستقيم المجتمعات، وما تركه لنا الخيام من نظريات في الرياضيات والفلك والعلوم والفلسفة لهو كفيّل أن نعطيهِ قدره ومقداره الحقيقي من اهتمامنا به.

كما يقول أحدهم: «أن الخيام يتفلسف بوصفه فيلسوفاً مسلماً، فيتناول القضايا الفلسفية، وفي خلفيّة ذهنه أنه مسلم»، وهذا يتناقض مع رباعيته حيث يتحدث بوصفه إنساناً فقط.

والرباعيات هي فنّ شعر فارسي عُرف به الخيام دون غيره، والرباعية هي مقطوعة شعرية من أربعة أبيات تدور حول موضوع وفكرة واحدة متكاملة، وقد تميّزت رباعيات الخيام بأنها سهلة اللغة والمعنى، وهي تحمل معاني من الحياة والجمال والحب والتسامح واللين، فهي تمس صميم حياة البشر، وتحتوي على أسئلة الوجود والقدر والزهد، والحث على الفضائل الإنسانية، ونقد المجتمع وبعض أفكاره الفلسفية، مما جعل المتصوفة يتعلقون بها، ويؤوّلون ألفاظها الظاهرية إلى ألفاظ رمزية، فقد أولوا الروض بالدنيا، وخذ الحسنة بالحقيقة، والخمرة بماء الحياة، وأنغام العود بالتناغم الأزلي، والجدائل والأنهار بالجنة، وهكذا دواليك، كما أنهم وضعوا لها مخارج كثيرة في بعض الأمور التي عدها الإسلاميون خارجة عن الإسلام.

لم تلاق فلسفة وأفكار الخيام رواجاً واسعاً في الشرق العربي الإسلامي، وخاصة الرباعيات، وتم اتهامه من قبل التيارات الإسلامية السابقة واللاحقة بأنه زنديق، وأن رباعيته مليئة بالكفر والإلحاد والإباحية، وأن أشعاره أفاح سامية، ووصفوه بأنه مستهزئ بالدين، وأنه ناشر للردية والفاحشة في المجتمع، وقد أفتى بعضهم بجواز قتله، وأمام هذه العواصف التي هجمت عليه، أدى به إلى أن يذهب لمكة لأداء الحج ثم عاد لنيسابور وعاش فيها إلى أن وافته المنية، وقد استدلت المتدينون بذلك بأبيات شعرية كثيرة ومن ذلك في قولهم أنه مدح الخمرة بقوله:

اشرب الراح فهي روح الروح...

بلسم النفس والحشى والروح

وإذا دهاك طوفان هم...

فانح فيها فذني سفينة نوح

وكذا إنكاره للبعث، حيث يقول:

قم في غارة الأسي مبكراً...

وادع بها وردية الدجى

فلست يا هذا غبي عسجدا...

حتى توارى في الثرى وتخرجا

وفي قولهم إنه دعا للإباحية في قوله:

ما اسطعت كن لبني الخلاعة تابعا...

واهدم بناء الصوم والصلوات

واسمع إلى الخيام خير مقالة...

اشرب وغن وسر إلى الخيرات

وبهذا عدوه كافراً وخارجاً من الدين، وعززوا قولهم، أن اهتمام الغرب الأوربي بأفكاره وفلسفته ورباعيته بسبب أنها

هو غياث الدين أبو الفتح عمر بن إبراهيم الخيام، والخيام هو لقب لأبيه لأنه كان يعمل في صناعة الخيام، ولد عمر الخيام في نيسابور بخراسان ما بين ١٠٣٨ - ١٠٤٨، وبدأ تعليمه في إحدى مدارس نيسابور لتعلم القراءة والكتابة، ولما قوي عوده رحل إلى سمرقند لدراسة الرياضيات، فأبدع فيها، وأخرج لنا كما هائلاً من النظريات الرياضية، منها ما ضمنها ضمن رسالته: «الجبر والمقابلة»، والاهتمام الذي أولاه للمعادلات التكعيبية، واهتمامه بالتوازي ونظرية النسب، والجدور، والنظرية الثنائية، ثم درس الفلك فقد عُين مديراً لمرصد بغداد، وتعلم اللغة والفقه والتاريخ، وتوفي في نيسابور ما بين ١١٢٣ - ١١٢٤، واشتهر برباعيته المعروفة بـ«رباعيات الخيام».

يعد عمر الخيام من الفلاسفة المسلمين العظماء، رغم نفي الفلسفة عن نفسه، حيث يقول: «غلط العدو إذا زعم أنني فيلسوف، فالله وحده يعلم أنني لست كما قال، أو ليس يحق لي على الأقل أن أعرف من أنا بعد أن وجدتني في دنيا غمّ وهم»، وتنسب له أبيات شعرية قالها في هذا الصدد، حيث يقول:

زعم القوم أنني فلسفي...

طال في استقراء الطبيعة درسي

أسمى كما ادعوا فلسفياً...

إن تكفرت في حقيقة نفسي

قد ذهبت وفي الحشاشة مني...

حسرات لخيبة الآمال

وألوف من المعاني دقاق...

لم تقل بعد خيفة الجهال

إلا أن بعض الباحثين والمترجمين لرباعياته، والدارسين لأعماله قالوا بأنه كان فيلسوفاً، وذلك من خلال مؤلفاته الفلسفية، أهمها خمس رسائل، واحدة باللغة الفارسية عنوانها بكتليات الوجود، وأربع منها بالعربية وهي: رسالة الكون والتكليف، ورسالة الجواب عن ثلاث مسائل: ضرورة التضاد في العالم، والجبر، والبقاء، ورسالة الضياء العقلي في موضوع العلم الكلي، ورسالة الوجود، فكل رسالة من هذه الرسائل لها أفكار فلسفية عدها الباحثون أنها من الفلسفة الإسلامية المتأصلة.

إن أبرز الفلاسفة والأفكار التي ناقشها الخيام هي فلسفة الوجود، وهي الفلسفة التي جعلته في مشاكل متواصلة مع الإسلاميين، وأبرز هذه الفلسفات وأولها الوجود الأخرى وما بعد الموت، كذا تدرج الموجودات ومعضلة الكثرة في الأجناس، كذلك قضية الشر في مقابل خيرية الله، وقضية القدر والاختيار وما يدور حولها من الجبرية الكونية والجبرية الاجتماعية والسياسية، مما جعلت أعماله الفلسفية أقل دراسة، ولم يتم نشرها وتلقيها إلا في زمن قريب، أي في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، ولكن ما أضع الخيام - حسب رأيي -